دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الأدب و العلوم الانسانية
المصدر:	بونة للبحوث والدراسات
الناشر:	مؤسسة بونة للبحوث والدراسات
المؤلف الرئيسي:	مرتاض، عبدالملك
المجلد/العدد:	ع 1
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2004
الشهر:	مارس
الصفحات:	35 - 44
رقم MD:	198931
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	النظريات، الأدب العربي، العلوم الانسانية، البنيوية، النقد الأدبي، التاريخ، المدارس النقدية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/198931

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الأدب... والعلوم الإنسانيّة

أ.د.عبد الملك مرتاض كلية الآداب، وهران – الجزائر

ليس هذا العنوان الذي اخترناه لهذه المقالة جديداً في عالم المعرفة، ولا طريفاً في نظريّة الأدب؛ فلَطالما لاَكَ الجامعيّون والأكاديميّون به ألسنتهم حتّى امتلأتْ به أشداقُهم، واختنقتْ بتَرْدادِه أصواتُهم. غير أنّ هناك قضايا تظلّ كأنّها مفاتيحُ للمعرفة الإنسانيّة بحيث لا تعْرُوها الشّيخوخة ولا يُبْليها كرّ الزّمان. ثمّ إنّ هناك مسائلَ أخراةً من المعرفة تتوارَى ثم تبدو، وتختفي ثمّ تظهر؛ وذلك لعواملَ معرفيّة تُبعدها من أمامِنا حيناً من الدّهر؛ ثم يقع التّبَيُّنُ، من بعد ذلك، بأنّ إبعادها لم يكن، في الحقيقة، لا منطقيّاً ولا مُنْصفاً؛ فإذا الحنينُ لا يزال يحمل عليها، وإذا المفكّرون والمنظّرون لا يلبثون أن يعودوا إلى ممارسة التّنظير والتّفكير للاضطراب في حقلها؛ ولكنْ تحت أشكـــال جديدة من الإجـــراءات، وبمناهجَ مُغايرةٍ من التّناوُل.

وكأنّ هذا السّلوك لا يختلف كثيراً عن سيرة الموضة التي تحتّم تغيير الزّيّ، وتعمل على تعديل تسريحة الشّعر، وتشرئبّ إلى التّجديد في أشكال تفصيل الثوب، وتوظيف المزاوجة بين ألوانه لتغتديَ ذاتَ تعبير ثقافيّ عن سرّ الموضة الجديدة ودلالتها الجماليّة؛ ولكنّ جمال الجوهر يظلّ هو هو؛ ممّا يحمل المصمّمين وعلماء الجمال على الرّجوع إلى الأصل الذي هو فضيلةٌ من الفضائل، كما يُعرَف في المقولة التّراثيّة.

وأودّ في هذه المقالة أن أسجّل شيئاً من انطباعي – للقارئ لعلّه أن يشاركني الرّأي، بل لعلّه أن يخالفني هذا الرّأي فيكون الغُنْمُ أعظم– وأنا أقرأ كتابا جديداً وقع لي، وصدر باللّغة الفرنسيّة في العام الماضي بباريس بعنوان : « الأدب والعلوم الإنسانيّة ». ولقد أسهم في تحرير هذا الكتاب الذي يقع في ثلاثمائة صفحةٍ من القطع الكبير، وذلك على التّقليد الغربيّ الجاري الذي يجب أن نبادر إلى الإكثار من العمل به نحن أيضاً في تأسيس ثقافتنا العربيّة المعاصرة وتطوير رُؤاها، وتعميق محتواها: طائفةٌ من المنظّرين وأصحاب المعرفة الدّقيقة والرّفيعة (نقــول ذلك لأنّ المعرفة في رأينا كثيراً مــا تكــون غير دقيقةٍ

ولا عميقة لدى بعض الكتّاب العرب فيشوّشون أذهان قرّائهم؛ فلا يكون للمكتوب الذي ينشأ عنهم أدنى فائدة يَشْتارُها القرّاءُ منه؛ بل ربما يحصل لهم من ذلك ضيرٌ وتشويش ذهنيّ فيُمسون من الخاسرين)؛ فاجتهدوا في أن يغطّوا عامّة القضايا المتمحّضة للعَلاقة الحميمة بين الأدب والعلوم الإنسانيّة انطلاقاً من مدارس الحداثة النّقديّة الفرنسيّة، وبخاصّة البِنَويّة : فهناك العَلاقة العامةّ التي تمثـّلها اللّغة التي هي أداةٌ مشتركة للكُروع من المعرفة بين النّاس جميعاً؛ فاللّغة تسبق المعرفة، فلا وجودَ لأيّة معرفة نظريّة إلاّ واللّغة سابقةٌ عليها؛ وإذن، فلا ينبغي أن تعبُر المعرفةُ إلاّ عن طريق قنوات هذه اللّغة أساساً حيث التّفكيرُ في كلّ مَظاهره لا يخرج من عَدَمه إلاّ بفضل السِّمات اللّفظيّة التي تجسّده، هي، كياناً فكريّاً قائماً، وجاثماً ماثلاً. ذلك بأنّه لولا هذه اللّغةُ التي بفضلها نتواصل، ومن خلالها نتعلّم؛ فنتّفق طوراً ونختلف طوراً آخرَ: لظلّ هذا التّفكيرُ عدَماً مظلماً. ولا نريد أن نتحدّث بكلّ التّفاصيل الممكنة عن خطر هذه العلاقة التي كثيراً ما يُهملها المفكّرون والنّقّاد العرب من المسار الفكريّ لهم فيفوّتون عليها وعلى أنفسهم أيضاً كثيراً من الخير؛ ولذلك تخلّفت لغتنا، وظلّت مُواكَبتُها لِما يجري في العالم من تطوّر مذهلٍ وئيدةً محتشِمة؛ حتّى إنّنا كثيراً ما نعجز عن ترجمة مفهوم جديد، في حقل من حقول المعرفة، فنظلّ فيه مختلفين ربع قرن أو يزيد، كما وقع، مثلاً، لمفهوميْ : « **Déconstruction** » و« **Différance** » (والمصطلح الأخير لَمّا تعترفْ به معاجم اللّغة الفرنسيّة، وذلك إلى عام 1998) لجاك دريدا؛ مع أنّ الذي يعرف الجذرين الاشتقاقيّين للمصطلحين المذكورين، في لغتهما الأصليّة، لا ينبغي له أن يجد هذه الصّعوبة التي يتمثّلها بعض النّقّاد كالمستحيل الذي لا يُدرَك في ترجمتهما إلى العربيّة[1]. ولكنّ التّسرّع في الفهم،

(1) ينظر عبد الملك مرتاض، نظريّة التّقويض، في علامات، جدّة، 1998. وينظر أيضاً، عبد الملك مرتاض، في نظريّة النّقد، دار هومه، الجزائر، 2002، الفصل المتمحّض لنظريّة التّقويض ونقدها (ص.87-101).
وينظر أيضا : Jacques Derrida, L'écriture et la différence, Seuil, Paris, 1967 ; le même, De la grammatologie, Minuit, Paris, 1967.

والتّطلّع إلى السّبْق الفكـــريّ، كما يتطلّع الإعـــلاميّون إلى السّبْق الإعـــلاميّ، كثيراً ما يُفضيان إلى اختلاف في استعمال المصطلح النّقديّ نتيجة حتميّة للتّسرّع في التّرجمة، وعدم مراعاة أصل المصطلح في اشتقاقه اللّغوي، وسياقه المعرفيّ... وعلى أنّ هذه قضيّة أخرى كثيراً ما خاض فيها الخائضون، وسنعود إليها، نحن أيضاً في حديث مخصوص...

ويمكن الانزلاقُ من خلال أمشاج هذا التّفكير إلى العَلاقة التي لم تزل حميمة بين اللّغة من حيث هي أصواتٌ ذات نظام يعبّر بها النّاس عن مقاصدهم (ويعرّفها ابن جنّي، كما هو معروف، بأنّها « أصوات يعبّر بها كلّ قـــوم عن أغراضهم »[1]. وقد فـــات الشّيخَ أن يصف هذه الأصوات التي تصدر أيضاً عن الحيوانـــات؛ فكـــان يجب التّمييزُ بين الأصوات والأصوات؛ ذلك بأنّ أصوات اللّغات البشريّة تقوم على نظام مخصوص هو الذي تتحدّد من خلاله الدّلالة فيتمّ التّفاهم بين المتخاطَبين بلغتهم، وهي غير الأصوات التي تصدرها الحيوانات التي قد تتصادف مع مخارج بعض الحروف)[2] ...

فالعَلاقة التي جئنا عليها كأنّها تربط اللّغة (وواضح أنّنا ننزلق بمفهوم »اللّغة« هنا إلى اللّغة الأدبيّة، أو **(Le langage**، وليس إلى اللّسان **(La langue)**، حتّى نبدّد كلّ التباس...) باللّسانيّات التي تنتهي وظيفتُها، في تحديد الوظيفة التّقليديّة للّسانيات الكلاسيكيّة على الأقـــلّ، بانتهاء الجملة، ليبتدئَ ما وراء ذلك عالَمُ الخطـــاب... فهنـــاك، إذن، عَلاقـــة اللّغة الأدبيّة باللّســـانيّات، أو علاقـــة هـــذه اللّغة بما أطلق عليه رولان بـــارط عـــام 1970 « لسانيّـــات الخطـــاب » **(Linguistique du discours)**[3] ... وهـــذا موضوع كبير لم يزل مجـــالاً مفتوحـــاً للمناقشة والحـــوار، والاختـــلاف والائتـــلاف،

(1) ابن جنّي، الخصائص، 1. 33.

(2) ولكي ننصف الشّيخ نقول: لعلّه احترز من ذلك بوَقْفِ هذه الأصوات على «كلّ قوم»، أي على كلّ مجموعة بشريّة. وببعض هذا التّخريج تنتفي أصوات الحيوانات من الحساب.

(3) Cf. Jean-Michel Adam, Barthes en 1970 : De la «translinguistique» à la déconstruction, in La littérature et sciences humaines, p.125-148

بين المنظّرين في الغرب والشّرق، وفي الغرب أكثر ممّا في الشّرق...

ونأتي إلى الرّكيزة الثانية وهي علاقة اللّغة الأدبيّة بعلم الاجتماع بخـــاصّة، وعلاقتها بالعلوم الإنسانيّة بعامّة؛ لكي نحاول الاقتراب من تقديم الكتاب الذي نـــودّ تقـــديمه إلى قـــارئ «أوان» الأنيقة؛ فقد وقع اختلاف بعيد بين المنظّرين المعاصرين في الغرب، تبعاً لانتماءاتهم الإِيْديولوجيّة، ومُتّجَهاتهم المعرفيّة، وخلفيّاتهم الفلسفيّة؛ فظلّت المدرسة الاجتماعيّة تُصِرّ على ضرورة ربْط الإنتاج الأدبيّ بالمجتمع، ومن ثَمّ بالإنسان، بل بالجماعة كلّها؛ أي لا يكون الأدب أدباً حقيقيّاً صادقاً، في منظور هذه المدرسة، حتّى تكون مرجعيّتُه اجتماعيّةً، وحتّى يستمدَّ تجربتَه من المجتمع الإنسانيّ. فرؤية هذه المدرسة تاريخيّة زمنيّة بحيث لا ترى شيئاً صالحاً من أمر الكتابة الأدبيّة إلاّ من خلال ربْطه بالبيئة والتّاريخ، أو المكان والزّمان، انطلاقاً من النّظريّة الثلاثيّة الأسُس للمؤرّخ الفرنسيّ هيبوليت تَين **(Taine)** (1828–1893) أساساً...

على حين أنّ المدرسة الْبِنَوِيّة ما جاءت، في الحقيقة، إلاّ لِتهُورَ هذا البُنيان من كلّ الأركان؛ زاعمةً أنْ لا حقيقةَ خارج اللّغة، وأنّ اتّخـــاذ مرجعيّة اجتماعيّة للكتابة الأدبيّة هي مجرّد خرافة من خرافات أمّ عمرو! فإذا هذه المدرسةُ ترفضُ، بكلّ إصرار، الإنسان، والمجتمع، والتّاريخ؛ فأمست نزعة مادّيّة عابثة... وتمرّدت على كلّ القيم الرّوحيّة التي يمثـّل المجتمع والتّاريخ والدّين ركنا من أركانها[1]...

كما كانت النّزعة الدّادويّة جاءت ذلك قبلها أثناء غمرة الحرب العالميّة الأولى فكفرت بكلّ القيم الإنسانيّة، وبصقت في وجه الإنسان، وكفرت بكلّ الأديان، نتيجة لأهوال تلك الحرب وويلاتها وما ألحقت بالإنسان في أوربا خصوصاً من تشرّد ومآس، وما سبّبته

(1) ينظر عبد الملك ، م.م.س.، الفصل السّابع، النّقد البنويّ والتّمرّد على القيم، ص. 190–220؛ نفسه، البيان، الكويت. 49.مدخل في قراءة الحداثة، ع.713، ديسمبر 1996. (وفي العملين إحالات على المصادر الأجنبيّة).

للمنشآت والبنايات من جنون التّدمير. ولم تلبث أن تابعتها السّرياليّة بزعامة الشّاعر والنّاقد الفرنسيّ أندري بريطون[1]، فأنْستها.

وهناك علاقة الأدب بالتّـــاريخ الذي رفضته البنَويّة (وقـــل البِنَويّـــات كما يتساءل فرنسوا دوص) أيضاً في العِقدين السّادس والسّابع من القرن العشرين رفضـــاً مطلقـــاً. ولعلّ أشهر من نظّر وطبّق من منظور البِنويـــّة النّـــاقـــد الفرنسيّ المتـــألّق رولان بارط فجاء حوله بنظريّات وآراء أمست مشكوكـــاً في أمرها مع مرّ الزّمان[2]...

بعد كـــلّ تلك الضّجّة الكبرى التي أفضت إلى إلغاء التّاريخ من الممارسة النّقديّة الحداثيّة[3]، مَثَلُ التّاريخ في ذلك مثلُ المجتمع الذي ينتج التّـــاريخ؛ وبعد ما يقـــال من نهاية عصر البِنَـــويّة التي ازدهرت في فرنسا ازدهاراً عظيمـــاً قريباً من خمسة عشر عاماً، أكثرُها عنفواناً وخصباً ما كُتب حولها من أعمال كبيرة في العقد السّـــادس من القرن العشرين؛ (غير أنّ آثار البنويّة، كما جاء ذلك في مقدّمة هذا الكتاب نفسِه لا تبرح قائمة إلى بعض أيّامنا هذه...) تحوّلت جهود الحداثيّين الغربيّين أوّلا، ثم الحداثيّين العرب آخراً، إلى التّقويضيّة (يستعمل النّقّـــاد العربُ « التّفكيكيّة »، ونحن لا نرى وجهاً سليماً لهـــذا الإستعمال...، وقد كنّا كتبنا مقالة في كتاب « علامات » بيّنّا فيها علّة ذلك...)[4]،

(1) Cf. Breton André, Manifeste du surréalisme (plusieurs passages), Idées, Gallimard, Paris, 1972 ; François Dosse, Histoire du structuralisme, tome I et

(2) Cf. Roland Barthes, Essais critiques, Seuil, Paris, 1981 ; Le même Introduction à l'analyse structurale des récits, in Communications, n° 8, Seuil, Paris, 1966, p.1-27.

(3) Auzias Jean-Marie, Le structuralisme, Seghers, Paris, 1975.

(4) يرى بعض الأصدقاء أنّني استعملت »التّشريحيّة« أوّلاً، قبل أن أصطنع مصطلح »التّقويضيّة«، والحقّ هو غير ذلك؛ فقد كنت أريد بتشريح النّصّ إلى ما يراد بّاشريح الجثة في الطّبّ، أي تحليله تحليلاً مجهريّاً دقيقاً. ذاك ما كان في ذهني أوّلاً. ينظر يوسف وغليسي، التّفكيكيّة في الخطاب النّقديّ المعاصر، قوافل، النّادي الأدبيّ الثقافي، الرّياض، ع. 9، 1977. وأحمد البنكيّ، عبد الملك مرتاض ومصطلحه المضطرب، في جريدة الأيّام، البحرين، 9 يناير 2000، ص. 13.

والْمُساءلة حــول هذا الشّيء المجهول، غير المعلوم، الذي يُطلَقُ عليه بتسرّع شديد، وتساهل غير علميّ : «ما بعد البِنَويّة» دون أن يحدّد أحدٌ إلى اليوم ما ذلك « الْما بعد » الذي جاء عقب هذه البنويّة؟ وما محتواه ؟ وما خلفياته الفلسفيّة؟ وما أسُسه المعرفيّة التي يقوم عليها ؟... وإنّما هو كلام يقال، أكثر ممّا هو نظريّة تُتداوَل... وقد لاحظ النّاقد الفرنسيّ جان – ميشال آدم أنّ وسائل الإعلام، في الولايات المتّحدة الأمريكيّة كما في أوربا، روّجت بسطحيّتها هذه الإشاعة فتسرّعت في إعلان موت البنويّة؛ مع أنّ المفروض أنّ هذه سيرة تخصّ الأكاديميّين الذين عليهم إعادة قراءة الفكر البنويّ بكلّ نصوصه ونظريّاته بتأنٍّ وعمق، وتوسّع واستفاضة، عوضاً عن الخوض في هذه المناقشات التي تبدو خالية من كلّ غَناء[1].

ولعلّ أوّل من تناول هــذه المسألة بمنهجيّة النّــاقــد الإنجليزيّ تيري إيقليتــون **(Terry Eagleton)** في كتابه «مدخل إلى النّقد والنّظريّة النّقــديّة[2]»، فقد وقف الناقدُ الفصلَ الرّابع من كتابه على ما يُطلق عليه اليــوم في المصطلح النّقــديّ المعاصر «ما بعد البنويّة» **(Le postructuralisme)** تناول فيه هذه الإشكاليّة بشيء كثير من التّفصيل..

على حين أنّ النّقّاد غير الحداثيّين، بمفهوم الحداثة الأدبيّة الفرنسيّة، بدءوا يُخرجون رءوسهم من مُخْتَبَآتها، ثمّ عمَدوا إلى رفْع عقائرهم، منذ بعض الوقت، بضرورة التّفكير في تمتين علاقة التّاريخ بالأدب، وبالسّيرة الذاتيّة، وبالتّحليل النّفسيّ؛ ولم يصدّقــوا أنّ غلواء الحماسة البِنَويّة قد خفّت وطأتها... وكانت هذه القيم الفكــريّة كلّها مرفوضة في منظور البِنَويّة؛ أي المنــاداة، من بعض الوجوه، وبلسان غير صريح، بالعودة إلى ما قبل

---

(1) Cf.Jean-Michel Adam, op. cit. P.125.

(2) ترجم هذا الكتاب إلى اللّغة الفرنسيّة من قبل ماريز سوشار (Maryse Souchard)، وصدر بباريس عن المطبعة الجامعيّة الفرنسيّة 1994. وكان الكتاب صدر بالإنجليزيّة تحت عنوان: » Literary Teory- An Introduction« ببريطانيا في عام 1983.

الأعوام الخمسين من القرن العشرين، بل إلى عهد تين في القرن التّاسع عشر الذي نادى بضرورة ربْط الإبداع بالمكـــان والزّمـــان والعِرْق...

وإنّ كتاب «الأدب والعلوم الإنسانيّة» الذي تحدّثنا عنه في مطلع هذه المقالة هو الذي يسعى إلى تكريس هذه المبادئ المعرفيّة ويدعو إليها جهاراً؛ وذلك بحكم أنّه صادر عن « مركز البحث في علاقة النّصّ بالتّاريخ ». ولعلّ ترجمة بعض عناوين مقالات هذا الكتاب للقارئ الكريم وهي، في مجموعها، سبعَ عشرةً مقالةً (وكـــان الأصل في هذه المقالات أوراقاً قدّمت في ندوة عُقدت بباريس في شهر نوفمبر 1999 بعنوان: الأدب والعلوم الإنسانيّة: 1968–1998)، تشهد ببعض ما زعمناه.

ولنضربْ لذلك مثلاً بالمحـــور الأوّل في الكتـــاب الذي قُـــدِّمَ تحت عـــنـــوان : « الأدب والتّاريخ والمجتمع...»؛ والذي من مقالاته: «تنظيم المعرفيّات في فروع : عصر الشّكّ » لألان بواسينو، ثمّ « من أجل تاريخ أدبيّ، وعرْض تاريخ الأدب » لباسكال كاسانوفا؛ ثم « الأدب والتّاريخ والكتابة في الفعل السّياسيّ تحت دائرة الإطلاق » لكريستيان جوهو؛ ثمّ « من الأدب إلى التّاريخ: خمسة وعشرون عاماً من الممارسة ورفْض الحدود في العـــلوم الإنسانيّة » لجـــان موليي؛ ثم: « من التّحليل النّفسي التّطبيقيّ إلى الأدب التّطبيقيّ » لبيار بـــايـــار؛ ثم: « الأدب وأصول الأجناس البشريّة » (الإثنوغرافـــيـــا) لجيرار كوجيز؛ ثمّ «تعريف السّيرة الذاتيّة» لفيليب لوجون...

وإذا كـــانت دراسة جـــان ميشـــال آدم قـــد تكـــون من أحسن الـــدّراســـات التي كُتِبت عن حداثة رولان بـــارط، وخـــصـــوصاً عن اقـــتـــراحـــه في مقـــالة نشرهـــا عـــام 1970، وظهرت في لاهـــاي، ضمن مقـــالات اضْطَمَّهـــا كتاب جـــمـــاعيّ؛ فـــإنّ أهمّ الدّراسات الأخرى التي نُشرت في هـــذا الكتاب حـــول موضوع « الأدب والعلوم الإنسانيّة » ربما كانت دراسة باسكـــال كـــازانوفـــا وقـــد نشرت بعـــنـــوان : « من أجل تـــاريخ أدبيّ، وعرْض تـــاريخ الأدب »، كما سنعرض لها بـــعـــد قـــليل،

بالإضافة إلى المقدّمة الدّسمة التي كُتِبت دون توقيع كاتبها مع كلّ الأسف.

وواضح أنّ عناوين المقالات التي وردت في تضاعيف هذا الكتاب الجديد الذي صدر عن مركز البحث في علاقة النّصّ بالتّاريخ؛ وهو ثمرة ندوة كبيرة كانت انعقدت منذ ثلاثِ سنواتٍ بجامعة « سيرجي بونتوا » ودامت ثلاثة أيّام (لنذكّر بأنّ هذا الكتاب صدر في عام 2001) تدرُج كلّها في مُضطَرَب الْمُجانَفَة الممنْهَجَة نحو الماضي والحنين إليه؛ بعد أن لم يقنع النّاس بعطاءات البنويّة، ولا بثمرات الحداثة الفرنسيّة التي نهضت أساساً على أسُس فلسفيّة عابثة في بعض مظاهرها، وأسس فلسفيّة إلحاديّة في بعض مظاهرها الأخرى، مع عودة هيمنة الدّينيّ على أرواح أكثر النّاس إلحاداً في كثير من البلدان الغربيّة نفسِها في العهد الأخير.

ويبدو أنّ فصول هذا الكتابِ ذي الأهمّيّة الاستثنائيّة، في مجال علاقة الأدب بالعلوم الإنسانيّة، جاءت لتقوّم، كما يكتب كاتب المقدّمة: « ما لا يزال حيّاً من الإشعاع البِنَويّ الذي كان حرّك النّقد والدّراسات الأدبيّة، فهزّها هزّاً، وشحذها شحْذاً، خلال الأعوام الثلاثين الأخيرة. وفي هذا المنظور، فإنّ أبعاد الشّهادة، والشّهادة النّقديّة والاستذكاريّة، كانت من الأهمّيّة بمكان؛ مثلُها مثل مفهوم الجيل أيضاً(...). إنّه لمن العسير تعريف الوضع النّظريّ للنّقد الأدبيّ؛ أو كما يقال اليوم: لـ« لقراءة الأدبيّة ». ذلك بأنّ النّقد الأدبيّ ليس خطاباً كبقيّة الخطابات الأخرى التي يمكن أن تضيء الفعل الأدبيّ من وجهة نظر خاصّة؛ وذلك في إطار منطق التّطوير الذي يطرأ على كلّ حقل معرفيّ؛ كما استطاعت أن تأتي ذلك، منذ عهد بعيد، نزعةُ التّحليل النّفسيّ، وعلم الأناسة (الأنتروبولوجيا)، والتّاريخ وتاريخ الذهنيّات، واللّسانيّات، وعلم الاجتماع، وهلمّ جرّاً... بل إنّ النّاقد ليسعى إلى تقديم تحليل للفعل الأدبيّ من وجهة نظر الأدب نفسه »[1].

(1) La littérature et sciences humaines, Avant propos, p.9.

وأمّا الدّراسة التي كتبها باسكال كازانوفا حول الحنين العارم إلى ربْط الأدب بالعلوم الإنسانيّة كما كان، في الحقيقة، منذ القِدم؛ فقد كتب في مطلع دراسته يقول: « إنّي أقترح أن أذكّر هنا بعَلاقة الأدب بالتّاريخ، وقل من باب أولى، أحاول وضْع صورةٍ مصغّرة لهما، وذلك على الرّغم من القطيعة الهائلة التي أُعلنت تِباعاً من كلّ من الأدب بالقياس إلى التّـــاريخ، ومن التّـــاريخ بالقياس إلى الأدب : باقتراح إعـــادة ترميم الصّلة بين التّاريخ والأدب؛ أي تقويم شروط إمكـــان وجـــود نقد أدبيّ ذي نزعة تاريخيّة على الرّغم من أنّه يظلّ أدبيّاً.

والحقّ أنّ النّظريّة الأدبيّة التي أسّست، في إطار البِنَويّة، تمثـــّل قطيعة مع التّاريخ بزعْمها وجوبَ الاختيار بين هذين المفهومين(...)، والزّعم بأنّ التّاريخ الأدبيّ هو عدول عن النّصّ، أي عدول عن الأدب بكلّ ما يحمل المصطلح من دلالة. إنّ التّفرّد الثابت للعمل الأدبيّ ظلّ على وجه الدّهر مطروحاً مُسْبَقاً على الخطـــاب الأدبيّ(...). لقد اتُّهِم التّـــاريخ بأنّه ليس جديراً بالتّسامي على النّحو المطلوب إلى سماء الأشكـــال الخالصّة للفنّ الأدبيّ»[1].

إنّ هذه الدّراسة، وطائفة أخرى من فصول هذا الكتاب تحمل، كما نرى، حنيناً عارماً إلى التّاريخ، ونزوعاً شديداً إلى التّعامل مع المرجعيّة الاجتماعيّة؛ أي بعودة ترميم العلاقة التي انفصمت بين الأدب والتّاريخ طوال قريبٍ من ثلاثين سنةً بفعل هيمنة المنظور البِنَويّ ثمّ التّقويضيّ على الفكر النّقديّ في فرنسا خصوصاً. فكأنّ البِنَويّة أعطت النّقد الأدبيّ ما كان يجب أن تُعطيَه إيّاه؛ فلمّا لم تعُد قادرة على العطاء سكتت عن الكلام المباح، وتركت الفرصة للتّاريخ الذي ظلّ ملازماً للأدب من حيث هو نتـــاج الرّجال، ومن حيث إنّ الذين كتبوه لا بدّ لهم من مجتمع يَحْيَوْن فيه، ومِن زمن يكتنفهم من جميع

(1) باسكال كازانوفا، الأدب والعلوم الإنسانيّة، ص.43. وكلّ ما استشهدنا به من النّصوص الفرنسيّة هو من ترجمتنا.

أقطارهم فلا يستطيعون المروق منه. فبعد أن سادت النّزعة البِنويّة التي كانت لا ترى شيئاً يوجد خارج اللّغة، بل منهم من أنكر أن يكون للّغة معنىً؛ وإنّما هي أصوات متداخلة تصدر عن الإنسان كأصوات الطّبول، بُعثت النّزعة التّاريخيّة من جديد لتعانق الأدب كما كانت متعانقة معه منذ العصور الموغلة في القِدم.

إنّ ربْط الأدب بالتّاريخ، وشدّ وَثاقِه بالمجتمع، أمرٌ مألوف منذ سالف العصر والأوان كما سلفت الإيماءة إلى ذلك؛ ولكنّ الذي يجب التّفكير فيه هو تطوير هذه العلاقة إمّا بالفصم والطّلاق النّهائيّين، وإمّا بتوثيق الرّباط بينهما والتّوكيد عليه؛ وليس مجرّد المناداة، في شيء بادٍ من السّذاجة، بالعودة إلى ترميم العلاقة التي انفصمت بين الأدب والتّاريخ قريباً من ثلاثين عاماً...

فهل يعني ذلك أنّ كلّ المدارس النّقديّة الحداثيّة أخفقت في أن تتّخذ لها المكانة التي لا تتزحزح في حيز التّاريخ الأدبيّ، فأمسى النّاس يبحثون عن أشكال جديدة للنّقد، أو الرّجوع، بكلّ بساطة، إلى الزّمن الماضي للاتّكاء عليه في تقرير جدليّة العلاقة بين الأدب والتّاريخ...؟ فلعلّ الأدب، من أجل ذلك، أن يظلَّ حـــائراً مشدوهاً في مفترَق الطّـــرُق بحيث يمكن أن يتوجّه إلى أيّ مُتَّجَه يُلاَصُ عليه دون أن يجد في ذلك غضاضة أو مستحيلاً، بل ربما يكـــون ذلك في سيرته محتوماً ؟

إنّا نعتقد أنّ الأدب يوم يعرف طريقه، ويطمئنّ إلى نفسه، ويرضى عن منجزاته؛ قد يكون في ذلك نهايتُه... من أجل ذلك نجنح إلى المناداة بأن يظلّ الأدبُ، وهو جزء من العلوم الإنسانيّة حتماً، وركن مكينٌ في أسُسها، قلِقاً في وضْعه، غير مطمئنّ في مساره الخياليّ كيما يتساءلَ ويشُكّ، ويَقلقَ ويَحَارَ، ويصِف ويُزعج، ويبتدع ويبتكر، ويتغنّى ويتباكى؛ من أجل أن يزداد عطاءً في إبداعه، وثراءً في إنجازه، وجمالاً في تصويره، ونضْرةً في نِتاجه.